معالم المجتمع المسلم

كما بينتها سورة الحجرات

بقلم

عبد العظيم بن بدوي

عفا الله عنه

مؤسسة الزهراء

للدعاية والنشر والتوزيع

كفر الشيخ / منشأة عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد :

فهذه عشر خطب في تفسير سورة الحجرات ، ألقيتها في مسجد حفيظة الحديد – يرحمها الله– بالقويسمة / عمان في الفترة من(٢٢/ ١٢ / ١٤٠٨هـ . الموافق ١٩٨٨/٨/٥م) إلى : (٢٦ /١٤٠٩/٢هـ الموافق ١٩٨٨/١٠/٧م) .

وقد كان بعض الإخوة من طلبة العلم يسجلون هذه الخطب ،فوقع في قلبي كتابتها رجاء أن ينفع الله بها مسموعة ومقروءة ، فقمت بتفريغ الأشرطة وكتابة الخطب ،ولم أزد على تهذيبها ، ونسبة الأحاديث إلى أصحابها من أهل السنن ، وأرجوا أن أكون قد اجتنبت الأحاديث الضعيفة قدر الإستطاعة ، وإني لأرجو الله أن يتقبل مني هذا العمل ،وأن يجعلني « ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين »

وكتبه

عبد العظيم بن بدوي

قبل غروب شمس يوم الخميس

٤/ ١٤٠٩/١١هـ ١٩٨٩/٦/٨ م

المبدأ الأول والثاني

وجوب العمل بالكتاب والسنة وحرمة مخالفتها

إن القرآن الكريم هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين والصراط المستقيم ، عصمة الله لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**﴾ (١) ، ﴿**وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد**﴾(٢).

وقد ضمَّن الله عز وجل هذا الكتاب كل ما يحتاج إليه البشر ، قال تعالى : ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ (٣). . وقال : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ (٤). . وقال : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾(٥). للتي هي أقوم في كل أمر من الأمور ، في كل مسألة من المسائل في كل قضية من القضايا ،في كل مشكلة تعرض ، وفي كل جانب من جوانب الحياة ، فأيما رجل يمم وجهه شطر كتاب الله عز وجل وجد فيه بغيته ، ووجد فيه الحل الأمثل لمشكلته ، ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾(٥). ، وقد تكفل الله عز وجل لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ،وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ،ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ (٦).

---

(١) هود : ١ (٢) فصلت : ٤١ ، ٤٢. (٣) الأنعام : ٣٨ . (٤) النحل : ٨٩

(٥) الإسراء : ٩ . (٦) طه ١٢٧ .

وقال النبي ﷺ: « **تركت فيكم شيئين : كتاب الله وسنتي** » (١)..

معشر المسلمين : لقد قرأت القرآن الكريم ، وتدبرت آياته ، فوقفت طويلاأمام سورة كريمة من سوره ، سورة ليست من الطوال ، إنما هي سورة لا تتجاوز ثماني عشرة آية ، ولكنها مع قلة آياتها ، قد تضمنت معان كثيرة واشتملت على حقائق عظيمة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية ،إنها سورة الحجرات .

هذه السورة المدنية التي لم تتجاوز آياتها ثماني عشرة آية إلا أنها تكاد تستقل بوضع معالم لعالم كريم نظيف طيب ،سليم القلب ، عف اللسان ، وقبل ذلك فهو عف السريرة .

إن السورة الكريمة سورة الحجرات تتحدث عن القواعد والأصول ، والمبادئ ، والمناهج التي باتباعها يمكن أن يوجد عالم نظيف كريم شريف ، عالم له أدب مع الله وأدب مع رسوله ،، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره ، فيكون هذا العالم كالبنيان المرصوص ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى .

إنه عالم أخذ نفسه بما ذكر الله له من آداب وأحكام ، فلا تسمع فيه لغوا ولا هجرا ، ولا إفكا ولا إثما ،ولا ترى فيه شحناء ولا بغضاء .

إنه عالم تحاب في الله ، وتفرق عليه .

---

(١) الحاكم (٩٣ / ١) .

إنه عالم يستحق أن يوصف بما وصف الله به أنصار رسوله : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ (١).

فما أحوجنا معشر المسلمين إلى قراءة هذه السورة الكريمة والوقوف عند كل آية فيها ، نتدبر ما فيها من معان وأحكام لنفقه عن الله عز وجل مراده من هذه السورة .

معشر الإخوة :

ابتدأ الله عز وجل السورة الكريمة بتعليم المؤمنين كيف يتأدبون مع الله ورسوله ،وكيف يخاطبون رسول الله ﷺ ويناودنه ، وكيف يكونون عنده ، فقال تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم ..** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾

معشر المسلمين :

إن الآية الأولى من هذه الآيات تعلم المسلمين كيف يتأدبون مع الله ورسوله، كيف يتأدبون مع الكتاب والسنة ،كيف يعملون بهما ، ويقدمونهما على غيرهما ، ولا يتحاكمون إلا إليهما ، فإن في ذلك السعادة في الدنيا والآخرة .

ابتدأ الله سبحانه وتعالى بهذا النداء الحبيب ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ذلك أن المؤمن يعلم أن من أجل نعم الله عليه نعمة الإيمان ، فهو حين ينادي بلقب الإيمان يذكر فضل الله عليه ، إذ شرح صدره للإسلام وهداه للإيمان ﴿ **فضلامن الله ونعمة** ﴾فيحمله النداء بلقب الإيمان على الإستجابة لأمر الله، الذي لولا أن من عليه

(١) الحشر ٩ .

ما اهتدى .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ أي لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا لا في خاصة أنفسكم ، ولا في أمور الحياة من حولكم . لا تقولوا في قضية حتى يقول فيها الله على لسان رسوله ، ولا تسبقوا بالحكم حتى يحكم الله ورسوله .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا ، فكره الله عز وجل منهم ذلك ، فنهاهم عنه فقال : ﴿ **لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ **لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . فإن القول المخالف للكتاب والسنة تقديم بين يدي الله ورسوله ، وقول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم من عمل الشيطان ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ (١) .

وقد حرم الله القول عليه بغير علم فقال : ﴿ **قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾(٢) .

ولقد تأدب أصحاب رسول الله بهذا الأدب مع الله ورسوله ، فما عاد مقترح يقترح على الله ورسوله وما عاد قائل يقول قبل أن يقول الله ورسوله ، وما عاد مفت

(١) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ . (٢) الأعراف : ٣٣ .

يفتي في مسألة حتى يرجع إلى قول الله ورسوله ،بل إنهم من شدة تأدبهم بهذا الأدب أمسكوا عن الإجابة عما يعلمون ، خشية أن يكون في الإجابة تقديم بين يدي الله ورسوله .

حدث أن النبي ﷺ خطب الناس في خطبة الوداع ، فكان من بين خطبته أن سألهم: « أي يوم هذا ؟ » وهم يعلمون أي يوم هم فيه ،ومع ذلك قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أليس يوم النحر ؟» قالوا : بلى .قال : « أي شهر هذا ؟» وهم يعلمون أنه ذو الحجة ، ومع ذلك أمسكوا عن الإجابة خشية أن يقدموا يبن يدي الله ورسوله ، حتى قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قالوا : بلى قال : « أى بلد هذا ؟ » وهم يعلمون علم اليقين أنهم فى مكة ، ومع هذا قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أليس البلدة الحرام ؟ » قالوا بلى . فقال ﷺ : « فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا » (١)

ولقد اشتد نكيرهم رضي الله عنهم على كل من يقدم بين يدي الله ورسوله ، وعلى كل من يقول قولا يخالف قول الله ورسوله ،عن ابن عمررضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ قال : « إذا استأذن أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها»، فقال بلال ابن عبد الله : « والله لنمنعهن » فأقبل عليه عبد الله فسبه سبا سيئا . وقال : أخبرك عن رسول الله ،وتقول : والله لنمنعهن؟ »(٢) . ولما أفتى ابن عباس رضي الله عنهما بجواز التمتع بالعمرة إلى الحج ، قالوا : لكن أبا بكر وعمر يقولان خلاف

(١) البخاري (١٧٤ /٣/٥٧٣) ، ومسلم (٣/١٣٠٥/٦٧٩) .

(٢) مسلم (١/٣٢٦/٤٤٢) .

قولك ؟فغضب ابن عباس وقال : يوشك أن ترجموا بحجارة من السماء ، أقول قال رسول الله ؟ وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ » (١)

وذات يوم سأل الإمامَ الشافعي سائلٌ ، فقال الشافعيُ : قال رسول الله ﷺ كذا . فقال السائل : وما تقول أنت ؟ فغضب الشافعي وقال : أتراني في كنيسة أتراني في بيعة أترى في وسطي زنارا ! أقول : قال رسول الله ، وتقول : ما تقول أنت ؟ » (٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ،واتقوا الله ﴾ أي : خافوا من الله واحذروا غضبه وعقابه إن أنتم قدمتم قولا مهما كان قائله على قول الله ورسوله ، خافوا من الله واحذروا أن يحل بكم غضبه وعقابه إن لم تتأدبوا بهذا الأدب مع الله ورسوله والتقوى كما يقول طلق بن حبيب : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ،ترجو ثواب الله ،وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، تخاف عقاب الله»(٣)

﴿ إن الله سميع عليم ﴾ سميع لكل ما يصدر منكم من أقوال ،عليم بكل ما انطوت عليه قلوبكم من نوايا ، هذا هو الأدب الأول الذي أدب الله به المؤمنين في سورة الحجرات .

والأدب الثاني : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾**

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٩٦ / ٢) (٢) انظر العقيدة الطحاوية (٣٩٩) .

(٣) جامع العلوم والحكم (١٣٨) .

إن رسول الله ﷺ حقه على هذه الأمة أعظم الحقوق بعد حق الله تعالى، فيجب أن يوقر وأن يحترم ويقدر ،ويجب أن يتأدب معه فلا يرفع الصوت بحضرته في حياته ،ولا يرفع عند قبره بعد مماته ،ولا يرفع الصوت فوق صوته وهو حي ، ولا يرفع الصوت فوق صوت سنته وهو ميت ،ولا يجوز أن ينادى كما ينادى الناس بعضهم بعضا .يقول الله تعالي: **﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾**(١) لا تقولوا : يا محمد ، يا أحمد ، فإن الله عز وجل لم يخاطب رسوله إلا بلفظ **﴿ يا أيها النبي ﴾** ، **﴿ يا أيها الرسول ﴾** وأنتم أولى وأحق بهذا الأدب مع رسول الله ﷺ **﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ،ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾** فإن هذا سوء أدب ، يؤدي إلي **﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾** وتلك الطامة الكبرى ، يقول النبي ﷺ : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، لا يلقى لها بالاً ،يرفعه الله بها في الجنة ،وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا ، يهوي بها في جهنم »(٢) ، ولقد تأدب أصحاب رسول الله ﷺ بهذا الأدب مع رسول الله .

فعن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ ، حين قدم عليه ركب بني تميم ،فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر برجل : آخر فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي . قال : ما أردت خلافك . فارتفعت أصواتهما في ذلك . فأنزل الله

(١) النور (٦٣) .

(٢) البخاري (٦٤٧٨ /١١/٣٠٨)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ الآية .قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه »(١) وأما أبو بكر فقال :« والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله » (٢) . وأعظم من ذلك ما كان من ثابت بن قيس – رضي الله عنه – ، كان من أمره أنه كان رجلا جهير الصوت ، فلما نزلت الآية اعتزل في بيته يبكي ، خوفا من أن يكون حبط عمله ، حتى افتقده رسول الله ﷺ ، فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسا في بيته منكسا رأسه . فقال له : ما شأنك؟ فقال شر . كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، وهو من أهل النار . فأتي الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا . فقال النبي ﷺ : اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة » (٣).

هكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يتأدبون بأدب الله . وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يأخذوا أنفسهم بهذه الآداب ، فلا يقدمون بين يدي الله ورسوله ، ولا يقولون قولا يخالف قول الله ورسوله . ثم مدح الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، فقال :

﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

إن التقوى لا تتحصل فى القلوب إلا بعد امتحان وابتلاء واختبار ،يمتحن الله

(١) البخارى (٦٤٧٨ / ٣٠٨ / ١١)(٢) الحاكم (٢/٤٦٢) .

(٣) البخاري (٨/٥٩٠/٤٨٤٦) ، ومسلم (١/١١٠/١١٩) .

عباده بالأوامر والنواهي ، ويبتليهم بالمحن ، فمن امتثل الأوامر والنواهي وثبت مع المحن، فلم يفزع ولم يسخط ولم يعترض ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة** ﴾ لذنوبهم ، ﴿ **وأجر عظيم** ﴾ على صالح أعمالهم . ثم ذكر تعالى نبأ جماعة من الأعراب جفاة ، أتوا رسول الله ﷺ فوجدوه داخل بيته ، فلم يصبروا حتى يخرج إليهم ، وأخذوا ينادونه : يا محمد اخرج إلينا ، يا محمد اخرج إلينا ، فعاب الله عليهم هذا التصرف فقال : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ فإن عنوان العقل الأدب . حسن الأدب عنوان العقل ، وقلة الأدب عدم العقل .

وإنما سمى العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن القبيح ، كما سمى الحبل الذي يقيد به الجمل عقالا ، لأنه يعقله عن الإنطلاق . وما أحسن قول القائل :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا   يغنيك محموده عن النسب

﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم** ﴾ ولو أنهم صبروا ولم ينادوا عليك حتى خرجت إليهم لكان خيرا لهم من مناداتك ، وعلى كل حال : ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ يغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ، ويدخله في رحمة منه وفضل .

المبدأ الثالث

مبدأ التثبت من الأخبار وعدم الجري وراء الشائعات :

قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن الجرى وراء الشائعات ، ويأمرهم بالتثبت من صحة الأخبار التى تنقل إليهم ، فليس كل ما ينقل صحيحا ، وليس كل ما يقال صدقا ، وإن أعداءكم يتربصون بكم الدوائر ، والواجب عليكم أن تكونوا يقظين أبدا ، حتى تعلموا من يريد أن يثير فيكم القلا قل ويذيع فيكم الشائعات التى لا أساس لها من الصحة .

﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ فلا تقبلوا خبره حتى تتبينوا وتتثبتوا ، وتجدوا من الدلائل والبراهين ما يدل على صدق ما أخبركم به .

فأعلم الله الأمة أن الأصل فى الفاسق الكذب ، ولكنه قد يصدق ، ولذا لا يقبل خبره ولا يرد إلا بعد التثبت من صحة ما قال ، فإن تبين صدقه بدلائل وبراهين قبل خبره وإلا رد عليه .

إخوة الإسلام : إن هذا المبدأ يجب على المسلمين جميعا أن يأخذوا أنفسهم به . فكم من فتنة حدثت بسبب خبر كاذب ، نقله فاسق فاجر ، وكم من دماء أريقت ، وأرواح أزهقت بسبب أخبار كاذبة لا أساس لها من الصحة ، اختلقها أعداء الإسلام ، وأعداء هذه الأمة ليقضوا بتلك الأخبار الكاذبة على وحدة الأمة ، ويمزقوا شملها ، ويثيروا فيها العداوة والبغضاء . كم فرق بين أخوين بأخبار كاذبة ؟

وكم فرق بين زوجين بأخبار كاذبة ؟ كم تحاربت قبائل وأمم لأخبار كاذبة ؟

والله سبحانه ، اللطيف الخبير ، يضع لهذه الأمة هذه القاعدة التشريعية ، لصيانة المجتمع من التمزق ، وصيانته من التفرق ، وصيانته من أن تشتعل فيه نار الفتنة فلا تطفأ أبدا .

أخوة الأسلام : إن مما يؤسف له أنه لم يخل مجتمع من مجتمعات المسلمين من المنافقين الحاقدين الحاسدين ، الذين لا يروق لهم أن يروا المجتمع المسلم مجتمعا متآلفا ، متآخيا يسعى بذمتهم أدناهم ، وإذا اشتكى أدناهم اشتكى أقصاهم.

أن مما يؤسف له أنه لم يخل مجتمع من مجتمعات المسلمين من هؤلاء المنافقين الحاقدين الحاسدين ، الذين يريدون أن يمزقوا شمل الأمة ويفرقوا جمعها ، ويشعلوا فيها نار الفتنة حتى يستطيعوا التغلب عليها .

الواجب على المسلمين أن يأخذوا حذرهم ، وأن ينتبهوا لأعدائهم ، وأن يعلموا أن أعداءهم يسهرون الليل للتخطيط والكيد لهم ، فعلى المسلمين أن يكونوا دائما حذرين ، حتى يعلموا من أين تأتيهم الشحناء ، وكيف تثار فيهم البغضاء .

إن وجود المنافقين فى المجتمع المسلم يشكل خطرا كبيرا ، ولكن أخطر من هذا الخطر وجود أناس من المؤمنين الصادقين ، يجرون وراء هؤلاء المنافقين ، يتقبلون منهم كل ما يملونه عليهم ، ويفتحون آذانهم لكل ما يحدثونهم به ، ويجرون وراءهم فى كل صغيرة وكبيرة ، ويقلدونهم فى الأقوال والأفعال ، غير مبالين بما يجرّون لأمتهم بسبب جريهم وراء هؤلاء المنافقين.

وقد سجل القرآن الكريم لنا شيئا من الويلات التى أصابت المسلمين بسبب

جرى بعضهم وراء المنافقين الحاقدين الحاسدين ، حتى نستفيد من التجارب التى مر بها من قبلنا اقرؤوا إن شئتم سورة النور ، وتأملوا الآيات المباركات التى سجلها الله تعالى فى براءة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها مما اتهمها به المنافقون ، وسار على اتهامها تقليدا من غير اتباع برهان ولا دليل نفر من المؤمنين الصادقين .

يقول تعالى :﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى:﴿ **أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم**﴾(١) فماذا كان من شأن أم المؤمنين عائشة ، الصديقة بنت الصديق ، وكيف شاعت هذه التهمة ضدها ، ومن الذين كانوا وراء ترويجها وإشاعتها ؟ وكيف تلقى المجتمع المؤمن هذه التهمة ؟ وماذا كان موقفه منها ؟ الآيات تذكر ذلك كله ، وتوضحه توضيحا عظيما ، وتفصله تفصيلا بليغا ، وتبين للمسلمين ما يجب عليهم إزاء هذه الشائعات التى تصدر من أفاك أثيم ، أكل الحقد قلبه ، وملأ الغيظ صدره.

لنستمع أولا إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وهى تروى لنا ما كان من شأنها الذى نزلت بسببه هذه الآيات ، ثم بعد أن نستمع لها نأخذ العبر والعظات من حديثها . لنتعلم كيف نواجه الإشاعات وكيف نتلقى الأخبار من الفاسقين بردها فى وجوههم ، حتى لا تشيع شائعة لا أصل لها بين المسلمين.

عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت(٢) : « كان رسول الله ﷺ إذا

(١) التور ١١ – ٢٦

(٢) البخارى (٢٦٦ / ٢٦٩ / ٥) ، مسلم (٢٧٧٠ / ٢١٢٩ / ٤) .

أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فإذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع ، فالتمست عقدى وحبسنى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذى كانوا يرحلون لى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى الذى كنت ركبت ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا . فوجدت عقدى بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فأممت منزلى الذى كنت به ، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى . فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم . فأتانى فعرفنى حين رآنى، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى . والله ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطئ علي يديها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة ، فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، ولا أشعر بشئ من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى

أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف . فذاك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت ، فخرجت معى أم مسطح ، قبل المناصع ، وهو متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط ، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح ، وهى ابنة أبى رهم بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح ابن أثاثة . فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى وقد فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ قالت : أى هنتاه ، أو لم تسمعى ما قال ؟ قالت : قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى .

فلما رجعت إلى بيتى ودخل على رسول الله ﷺ ، تعنى سلم ، ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟: قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . قالت : فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى ، فقلت لأمى يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله ، أو لقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، حتى أصبحت أبكى .

فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد رضى الله عنهما حين استلبث الوحى يستأمرهما فى فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على

رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم فى نفسه من الود فقال : يا رسول الله ، أهلك ، وما نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، ، فقال: أى بريرة ، هل رأيت من شئ يريبك ؟ قالت بريرة : لا والذى بعثك بالحق ، إن رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبى ابن سلول ، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين : من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا. وما كان يدخل على أهلى إلا معى . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يا رسول الله ، أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال : أبعد ، كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتساور الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت : فمكثت يومى ذلك ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم . قالت : فأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوما ، لا أكتحل بنوم ، ولا يرقأ لى دمع ،

يظنان أن البكاء فالق كبدى . قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، فأستأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، قالت فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى . قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال: أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرؤك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله ، تاب الله عليه .

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى: أجب رسول الله فيما قال . قال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ فيما قال . قالت : ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ . قالت : فقلت: وأنا جارية حديثة السن ، لا أقرأ كثيرا من القرآن : إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة – والله يعلم أنى بريئة – لا تصدقوننى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم أنى بريئة – لتصدقننى . والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبى يوسف ، قالا: ﴿ **فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون** ﴾

قالت: ثم تحولت ، فاضطجعت على فراشى . قالت : وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، التى إنه ليتصدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو فى يوم شات ، من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ سرى عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك ، فقالت أمى : قومى إليه . قالت : فقلت والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل.

وأنزل الله :﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ..**﴾ العشر آيات كلها .

فلما أنزل الله فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ما قال : فأنزل الله : ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم**﴾ . قال أبو بكر : بلى والله ، إنى أحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمرى ، فقال : يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، ما علمت إلا خيرا .

قالت وهى التى كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك وهكذا عاش رسول الله وآل بيته ، وأبو بكر وآل بيته ، والمجتمع الإسلامى كله فى

المدينة ، عاشوا شهرا من الغم والهم والحزن والنكد وانشغال البال ، عاشوا جميعا شهرا كاملا على أعصابهم ، لا يستطيع رسول الله ﷺ أن يبرئ زوجه ، لا يستطيع أبو بكر أن يبرئ ابنته ، لا تستطيع أم عائشة أن تقول كلمة فى براءة ابنتها ، ولم يستطع صفوان أن يبرئ نفسه ، حتى نزل الوحى بعد شهر كامل ، والكل مشدود الأعصاب ، مرهق الفكر ، مهموم القلب ، بسبب إشاعة روج لها منافق حاقد ، فلاكتها الألسنة ، ووقع فى الخوض فيها بعض المؤمنين الصادقين ، منهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش . فكيف أدب الله المؤمنين بعد هذه الشائعة ، وكيف علمهم ما يجب عليهم تجاه الإشاعات.

الدروس المستفادة من قصة الإفك

قال تعالى : ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ..**﴾ الآيات إلى قوله تعالى :﴿ **أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ (١)

إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم فليسوا فردا ولا أفرادا ، وإنما هم عصبة ، جماعة مجتمعة ذات هدف ، وكان الذى تولى كبره منهم ، ذاك الخبيث عدو الله ، عبد الله بن أبى ابن سلول ، كان هو الذى تولى كبر هذا الإفك ، وروج له بين أوليائه من المنافقين ، ووقع فى الخوض فى هذا الحديث نفر من المؤمنين الصادقين.

﴿ **ولا تحسبوه شرا لكم** ﴾ لا تحسبوا ما قيل عنكم يا آل أبى بكر شرا لكم ﴿ **بل هو خير لكم** ﴾ فالأمور لا تقدر بظواهرها ، فربما يأتى الخير فى صورة يرى أنه

(١) النور ١١ – ٢٦

شر ، فلا تحسبوا ما وقع شرا لكم ، ﴿ **بل هو خير لكم** ﴾ وأول ذلك الخير أن ذكركم الله فى الملأ الأعلى ، وأنزل فى شأنكم آيات تتلى .

﴿ **لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾

وبهذه الآية انزاحت الغمة ، وانكشفت الظلمة ، وانزاح ذاك الجبل من الحزن الذى نزل على قلب أم المؤمنين عائشة ، وزوجها النبى ، وأبيها الصديق ، كما انزاح عن قلب المتهم بها الصحابى الأمين صفوان بن المعطل .

ثم أخذت الآيات تعلم المؤمنين كيف يواجهون الإشاعات ، وكيف يقفون فى وجه الكذب والكذابين ، فقال تعالى :

﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا إفك مبين** ﴾

هذه أول خطوة يجب عليك أيها المسلم اتخاذها إذا بلغك عن أخيك خبر يتهمه ، أن تظن بأخيك هذا ظنك بنفسك ، فإذا كنت تحسن الظن بنفسك ، فمن حق أخيك المسلم عليك أن تحسن الظن به ، قال ﷺ :

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[١]

(١) البخارى (١٣ / ٥٦ / ١) . ومسلم (٤٥ / ٦٧ / ١) . والترمذى (٢٦٣٤ / ٧٦ / ٤) ، وابن ماجه (٦٦ / ٢٦ / ١) ، والنسائى (١١٥ / ٨) .

فإذا أحسنت الظن بأخيك ، فإن بلغك عنه ما يتهمه فقل ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ . ما كان لأخى أن يقول هذا ، أو يفعل ذاك.

وهذا هو ما فعله بعض المؤمنين والمؤمنات حين بلغهم ما بلغهم عن أم المؤمنين رضى الله عنها .

عن أبى أيوب الأنصارى أنه قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك[١]

﴿ **لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ! فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون** ﴾ . هذه هى الخطوة الثانية ، التى يجب على كل مسلم اتخاذها إذا بلغه عن أخيه ما يتهمه .

الخطوة الأولى كانت طلب الدليل الباطنى ، وهو حسن ظن المؤمن بأخيه . والخطوة الثانية هى طلب الدليل الحسى ، والبرهان الواقعى « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء» . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ وفى قراءة « **فتثبتوا**» أى اطلبوا ممن جاءكم بهذا النبأ البرهان والدليل على صحة ما جاء به ، فإن جاء به ، وإلا رد خبره فى وجهه لأنه كاذب فاسق ، وأمسك الجميع عن نقل هذا الخبر الباطل ،

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٧٣).

الذى لا أساس له من الصحة ، وبهذا تموت الأشاعات وتدفن فى صدور مروجيها حين يفقدون من يتلقاها عنهم ويقبلها منهم ، وهذا ما ذكره ربنا بقوله :

﴿ لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾

وهكذا يربى القرآن أهله ، ولكن للأسف ترى كثيرا من المسلمين لا يلتزمون بهذه التربية ، فما أن يذيع منافق حاسد حاقد خبرا ضد أحد من المسلمين ، حتى يشيع ذاك الخبر فى المجتمع وتلوكه الألسنة من غير تثبت ولا ترو ، وفى ذلك يقول ربنا سبحانه :

﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ .

﴿ إذ تلقونه بالسنتكم ﴾ والأصل فى الكلام أن يتلقى بالآذان لا بالألسنة ، ولكن الله تعالى يعبر عن سرعة نقل الحديث وانتشاره بين الناس ، وكأن الكلمة تخرج من لسان إلى لسان ، من غير أن تمر بالأذن الموصلة إلى القلب الذى يفكر فيما سمع ، ثم يفكر فى جواز نقله وعدم جوازه .

﴿إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ من غير تدبر ، ولا إمعان نظر ، ولا تدبر فى عواقب الأمور ، **﴿ وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم ﴾**

وبعد أن أدّب الله المؤمنين بهذه الآدا ب ، وعلمهم كيف يواجهون الإشاعات ، ويحاولون القضاء عليها فى مهدها ، حتى لا تشيع فى المجتمع ، بعد ذلك يحذر الله المؤمنين من الخوض فيما ليس لهم به علم ، يحذرهم من الجرى وراء

الكذابين المروجين للإشاعات ، فيقول: **﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴾**

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أن الجرى وراء الكذابين المروجين للإشاعات إنما هو اتباع لخطوات الشيطان ، فيقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾

ثم يبين الله سبحانه أن الألسنة ومعها سائر الجوارح ستشهد على العبد يوم القيامة ، فيقول **﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾**.

فيا مروج الإشاعات ، ويا مختلقا للإفك والكذب ، يا من لا يروق له أن يرى متحابين حتى يفرق بينهما ، يا من لا يسره أمن المسلم ولا طمأنينته ، أمسك عليك لسانك فإنك مؤاخذ بكل كلمة تقولها ، قال تعالى : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾** (١)

يا عبد الله المسلم أمسك عليك لسانك ، احذر الكذب ، احذر الترويج للإشاعات ، واحذر القول بغير علم ، واحذر أن تتهم مسلما بغير بينة ، واحذر أن تظن بأخيك المسلم سوء .

(١) ق ١٦ – ١٨

أمسك عليك لسانك ، فإنك مؤاخذ بكل كلمة ، كما قال معاذ بن جبل للرسول ﷺ : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال ﷺ :«ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم »(١)

إخوة الإسلام : ها نحن قد وقفنا على قصة الإفك ، وما يستفاد منها من دروس ، والواجب علينا الإيمان بما أخبرنا الله به من براءة أم المؤمنين رضى الله عنها ، والعلم بأن من يشك فى براءتها فهو كافر خارج عن الإسلام ، لأنه كذّب صريح القرآن : ﴿ **أولئك مبرءون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾

---

(١) الترمذى (٤/١٢٤/٢٧٤٩) ، ابن ماجه (٢/١٣١٤/٣٩٧٣).

المبدأ الرابع :

وجوب الإصلاح بين الناس

قال تعالى : ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** .. الآيات إلى : **لعلكم ترحمون** ﴾.

لما نهى الله المؤمنين عن أن يقدموا بين يدى الله ورسوله ، أتبع ذلك ببيان الحكمة منه ، وهى أن الله سبحانه أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، ونبيه أولى بهم من أنفسهم ، فعليهم أن ينتهوا عما نهاهم عنه ، وأن يرضوا بما قسمه لهم ، وبما يختاره لهم نبيهم ، فالله يعلم وهم لا يعلمون ، ونبيهم ﴿ **ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى** ﴾(١) ولو أن النبى أطاعهم فى كثير مما يرونه ويريدونه لأصابهم بذلك العنت والحرج ، كما قال تعالى ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات الأرض ومن فيهن** ﴾(٢)وقال هنا ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم** ﴾ أى أعلموا أن بين أظهركم رسول الله ، فعظموه ووقروه ، وتأدبوا معه ، وانقادوا لأمره فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم . وفى هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله ، وأن يدخلوا فى السلم كافة ، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره ، ويتلقوا عنه ، ولا يقترحوا عليه .

---

(١) النجم ٣ ، ٤ (٢) المؤمنون ٧١

ثم أرشد الله عباده المؤمنين إلى أجل نعمة عليهم ، فقال :﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم** ﴾.

إخوة الإسلام :﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ (١) ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾(٢) وإن الإيمان هو أعظم نعمة ينعم الله بها على عبد من عباده ، إن نعمة الأيمان أكبر من نعمة الحياة نفسها ، وأكبر من سائر النعم التى تتعلق بنعمة الحياة، كالصحة والرزق والمال والبنين ، فالإيمان هو الذى يحافظ على إنسانية الإنسان ، وهو الذى يرفعه إلى أعلى عليين ، وفقد الإيمان يرد الإنسان إلى أسفل سافلين ، يجعله شر الدواب . قال تعالى :﴿ **والتين والزيتون وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** ﴾(٣) وقال تعالى :﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون** ﴾(٤)

والإيمان – إخوة الإسلام – لا ينال بعبقرية ، ولا ذكاء ، كما أنه لا يشترى بمال ، إنما الإيمان هبة الله ، يمن بها على من يشاء من عباده ، وهو سبحانه أعلم بمن يستحق هذه الهبة ﴿ **فضلا من الله ونعمة**﴾ أى الهداية للإيمان هى فضل من الله ونعمة من لدنه .﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ عليم بمن يستحق الهداية وبمن لا يستحقها،

---
(١) النحل ٥٣

(٢) النحل ١٨

(٣) التين ١ – ٦

(٤) الانفال ٥٥.

حكيم فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، ومن حكمته أنه يهدى من يشاء ممن يستحق الهداية ، ويضل من يشاء ممن يستحق الغواية ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، قال تعالى :﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم** ﴾ (١) أى لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمع آذانهم ، ولكنه سبحانه لم يعلم فيهم خيرا ، ولا رغبة فى الهدى ، فلم يفتح عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم ، وما أفسدوا هم من فطرتهم ﴿ **ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾(٢) أى ولو شرح قلوبهم للإسلام ما قبلوه ، فلذلك لم يشرحها ، وفى هذه الآية إشارة إلى أن الله قد أحاط بكل شئ علما ، وأنه سبحانه علم ما كان وما يكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

وفيها إشارة إلى أن الله قد علم فى قلوب المؤمنين خيرا ، ولذا شرحها للإسلام، وحبب إليهم الإيمان .

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ..﴾

هذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك . وفى مجيئها عقب الأمر بالتثبت من نبأ الفاسق إشارة إلى أن الاندفاع وراء الحمية والحماسة قبل التثبت من الأخبار واستيقانها قد يؤدى إلى القتال ، فتزهق الأنفس وتراق الدماء من غير ذنب ولا جريمة ﴿ **فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ .

---
(١) ، (٢) الأنفال ٢٢ – ٢٣

إخوة الإسلام : « إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم »[1] أى ولكنه يسعى فى التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن وغيرها ، فشيطان الجن يحرش بين المؤمنين ، وينزغ بينهم ، وله أعوان من شياطين الأنس ، يزعجهم أن يروا المسلمين أمة واحدة ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وإذا اشتكى أقصاهم اشتكى أدناهم ، ولذا فهم أبدا حريصون على الإيقاع بين المسلمين ، وتفريق كلمتهم ، وتمزيق شملهم . فعلى المسلمين أن يأخذوا حذرهم ، وأن يعملوا جاهدين على تثبيت الإخوة بينهم ، فإذا ما بدت عوامل الخلاف سعوا فى القضاء عليها ، فإذا حصل قتال بين طائفتين فعلى سائر المسلمين أن يصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، وجب على المسلمين قتال الفئة الباغية حتى تفئ إلى أمر الله ، فإن فاءت أصلحوا بينهما بالعدل ، فليس المراد مجرد الصلح ولكن المراد صلح يقوم على العدل ، لا على الظلم والحيف ، ﴿ **فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾. قال ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن – وكلتا يديه يمين – الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا »[2] ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ . هذا عقد عقدة الله بين المؤمنين ، فأيما مؤمن بمشرق الأرض كان أو بمغربها فهو أخ للمؤمنين ، ومن مقتضيات هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة ، هى الأصل فى الجماعة المسلمة ، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذى يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه . ومن مقتضيات هذه

---

(١) مسلم (٢٨١٢/٢١٦٦/٤) ، الترمذى (٢٠٠٢/٢٢١/٣) بدون لفظة « فى جزيرة العرب ». (٢) مسلم (١٨٢٧/١٤٥٨/٣) ، أنس (٢٢١/٨)

الأخوة أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يكره له ما يكره لنفسه .

ومرة ثانية يأمر الله بالإصلاح بين المؤمنين ، ثم يأمر بتقواه ، والتقوى هى التى تعين على الائتمار بما أمر الله ، والانتهاء عما نهى ، ويبين أن إصلاح ذات البين سبب لرحمته ، وهو يشير إلى أن إفساد ذات البين سبب لغضبه وعقابه ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ .

المبدأ الخامس :

تعظيم حرمات المسلمين

تعظيم حرمات المسلمين مبدأ من المبادئ الأساسيه التي يقوم عليها المجتمع المسلم ، وهذه المبادئ للمجتمع كالقواعد للبنيان ، ومن المعلوم أنه لا يقوم البنيان إذا اختلت قاعدة من قواعده الأساسية ، لأن سلامة البنيان من سلامة القواعد ، وضعفه من ضعفها .

وتعظيم حرمات المسلمين مبدأ من المبادئ الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم ، وحين تنتهك هذه الحرمات ينهار هذا المجتمع ويتساقط .

ولقد كان النبي ﷺ يهتم بترسيخ هذا المبدأ وتثبيته ، فكان يخطب به في المحافل العامة والمجامع الكبيرة ، وكان ﷺ يقول : « كل مسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » (١) .

وأكد ذلك تأكيدا عظيما في حجة الوداع ، فخطب بهذا المبدأ يوم عرفة ، ويوم النحر وثاني أيام التشريق ، فقال : « إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، في شهركم هذا » (٢)

معشر الإخوة : يقول تعالى :

---

(١) مسلم (٥٦٤ / ١٩٨٦ /٤) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٨٦١ / ٢٢٦/ ١٣) مختصرا ، وكذا الترمذي (١٩٩٢ / ٣/٢١٨) .

(٢) البخاري (١٧٤١ /٣/٥٧٣) ، ومسلم (٦٧٩ / ٣٠٥ /٣) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان .ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ .

هاتان الآيتان توجيه عام للمؤمنين في كل زمان ومكان ، صيانة لأفرادهم ، ووقاية لأسرهم ولمجتمعهم ، من الإنزلاق في هذا السداسي الجاهل :

« السخرية ، واللمز ، والتنابز بالألقاب ،وسوء الظن ، والتجسس ، والغيبة » ، هذه آفات تنهك المجتمعات ، وتفتك بها وتهدمها من أساسها .

هذا السداسي الجاهلي أمراض فتاكة ، لا تذيع في مجتمع إلا قضت على المحبة والمودة من جذروها ، وزرعت في هذا المجتمع العداوة والبغضاء .

ولقد تقاسمت الآيتان النهي عن هذا السداسي الجاهلي بالسوية :

فالآية الأولى تضمنت النهي عن السخرية ، واللمز ، والتنابز بالألقاب .

والآية الثانية تضمنت النهي عن سوء الظن ، والتجسس ، والغيبة .

والآيتان بذلك تترابطان وتتكاملان وتتعاونان في نهي المؤمنين عن هذا السداسي الجاهلي ،وذلك أنه إذا ذاع كله أوبعضه في مجتمع ضاعت من هذا المجتمع المحبة والمودة ،وضاع السلام والأمان ، والأصل في المؤمنين أنهم وحدة واحدة ،يسوء الفرد ما يسوء المجتمع ،ويسوء المجتمع ما يسوء الفرد كما قال ﷺ :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (١)

إخوة الإسلام : حديثنا الآن عن الآية الأولى ، والتي تضمنت النهي عن هذه الآفات الثلاث : السخرية ، واللمز ، والتنابز بالألقاب . لقد بدأ الله سبحانه بهذا النداء الحبيب ، ليثير في قلوب المؤمنين العاطفة و يحثهم على سرعة الإستجابة لما ينهاهم عنه هذا النداء ، فالإيمان يقتضى من المؤمنين أن يقوموا بالواجبات ويتركوا المحرمات، **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ﴾** ، لم ؟ **﴿ عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾**، **﴿ ولا نساء من نساء ﴾** أي لا تسخر نساء من نساء ، لم ؟ **﴿ عسى أن يكن خيرا منهن ﴾** .

فالسخرية من الناس غير جائزة،لا يجوز أن يسخر غني من فقير ،ولا قوى من ضعيف ، ولا صحيح من سقيم ،ولا ذكي من بليد ،ولا يجوز أن تسخر غنية من فقيرة ، ولا سوية من مشوهة ،ولا جميلة من غير الجميلة ،ولا شابة من عجوز ، فإن هذه القيم ليست هي التي يوزن بها الناس ، إنما هناك قيم أخرى يعلمها الله عز وجل، يزن بها العباد ، وإن كانت تلك القيم خافية على كثير من الناس هذا ما قرره الإسلام ، ووضحه النبي ﷺ توضيحا رائعا كما جاء فى هذا الحديث : عن سهل بن سعد الساعدي قال : مر رجل على رسول ﷺ ، فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك في هذا ؟ فقال : رجل من أشرف الناس ، هذا والله حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع . قال : فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل ، فقال له رسول

(١) البخارى (٦٠١١ / ٤٣٨ / ١٠) ، ومسلم (٢٥٨٦ / ١٩٩٩ / ٤) واللفظ له .

الله ﷺ : « ما رأيك في هذا فقال : يا رسول الله . هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حري إن خطب أن لا ينكح ،وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال رسول الله ﷺ : « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » (١)

﴿ يا أيها ا لذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ وعسى من الله موجبة ، فمهما أحسنت الظن بنفسك ،ورأيت أنك على خير ، فإن من المؤمنين من هو عند الله خير وأكرم منك ، فإياك والسخرية من المؤمنين ، وإياك والإستهزاء بهم .

إن السخرية من المؤمنين والإستهزاء بهم عمل من أعمال الكفار والمنافقين ، فكيف يستبيح مؤمن لنفسه أن يعمل عمل الكفار والمنافقين فيسخر من المؤمنين ويستهزئ بهم ؟!

يقول تعالى عن الكفار : **﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون عي الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾** (٢)

ويقول تعالى عن المنافقين : **﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ،وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾** (٣).

(١) البخارى (٥٠٩١ / ١٣٢ / ٩) .

(٢) المطففين : ٢٩ – ٣٦ .

(٣) البقرة : ١٤ .

فالله الله يا عبد الله ، لا تسخر من مؤمن ولا تهزأ به ، فإن النبي ﷺ يقول :

« بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » (١)

إن الناس لا يوزنون بالمظهر والصورة ،وإن كانوا ذوى منظر حسن وصورة جميلة ، قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٢).

﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ هذا هو النهي الثاني ينهي عن الآفة الثانية ، وهي « اللمز » . واللمز هو عيب الغير باليد ، باللسان ، بالعين ، بالإشارة ، بالكلمة الخفية ،ويكون فى حضور الملموز .

والهمز :هو عيب الغير باللسان في غيابه .

وقد نهى الله نبيه ﷺ عن طاعة من هذه صفته ،فقال تعالى : **﴿ ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم﴾** (٣) .

وتوعد الله الهمزة واللمزة بالويل ،وهو واد في جهنم تستغيث جهنم من حره ، فقال تعالى : **﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾** (٤)

وكما أن السخرية من المؤمنين والإستهزاء بهم عمل من أعمال الكفار والمنافقين ، فكذلك الهمز واللمز أيضا .

---

(١) هذا من جملة حديث « كل مسلم على المسلم حرا » وقد سبق قريبًا.

(٢) مسلم (٢٥٦٤ / ١٩٨٧ / ٤) . (٣) القلم : ١٠ – ١١ .

(٤) الهمزة : ١ .

يقول تعالى عن النافقين : **﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ،فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾** (١)

ويقول تعالى : **﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ،سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾** (٢)

ويقول تعالى عن الكافرين : **﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم﴾** (٣) .

فالله سبحانه وتعالى ينهى المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض ، واستهزاء بعضهم ببعض كما ينهاهم عن الهمز واللمز ليس فقط لما تجلبه هذه الآفات من العداوة والبغضاء وانما أيضاً – لأن هذه الآفات من أعمال الكفار والمنافقين ، ولا يجوز التشبيه بهم ، لقوله ﷺ : « من تشبه بقوم فهومنهم » (٤).

إخوة الإسلام : إن الله تعالى حين نهى عن اللمز قال :**﴿ ولا تلمزوا أنفسكم﴾** ؟

وقد علمنا أن اللمز هو عيب الغير فكيف قال الله **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾**

.ذكر العلماء لذلك علتين :

الأولى :أن الرجل إذالمز غيره تسبب في لمز نفسه،فكأنه ابتداء قد لمزنفسه، كما قال تعالى : **﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾** (٥) ، وهذا نهي عن أن يقتل المؤمنون

---

(١) التوة : ٥٨ . (٢) التوبة : ٧٩ .

(٣) القلم : ١٠ – ١١ . (٤) أبو داود (٤٠١٢ / ٧٤ / ١١) .

بعضهم بعضا ،ولكن علم الله أن القاتل يُقتل ، وكذلك شرع الله سبحانه ، فكأن من قتل غيره قد قتل نفسه لأنه تسبب في قتلها .

ومن ذلك قول النبي ﷺ : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » . قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » (١) . يا سبحان الله ، ما هذه الحساسية ؟ وما هذه الشفافية ؟! « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » ويتعجب أصحاب النبي ﷺ فيسألونه : « وكيف يلعن الرجل والديه ؟ » رحماك اللهم ، اللهم ارض عن أصحاب رسولك ، الذين لم يعرفوا كيف يلعن الرجل والديه حتي سألوا عنه ، كيف بهم لو بعثوا من قبورهم وسمعوا شتم الأبناء الآباء ، وسب الأبناء الأمهات ؟! اللهم عفوك . والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ ذكر أن الرجل إذا لعن أبا غيره ، لعن الغير أباه ، فكأنه ابتداء لعن أباه .

والعلة الثانية في قوله : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أن المؤمنين كلهم كالرجل الواحد ، فإذا لمز المؤمن مؤمنا فكأنما لمز نفسه .

﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ . هذا هو النهي عن الآفة الثالثة وهي التنابز بالألقاب ، ومعناه : أن ينادي الرجل أخاه بما يكره من الأسماء والكنى والألقاب ، ومن حق المؤمن على المؤمن أن يناديه بأحب الأسماء إليه ، فإذا كان لمؤمن اسمان أو كنيتان أو لقبان ، فلا يجوز أن ينادي بما يكره من ذلك ، ويجب أن ينادى بأحبها إليه، ولما نهى ربنا سبحانه وتعالى عن هذه الآفات الثلاث قال : ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ إن العمل بما نهى الله عنه فسوق أي خروج عن طاعة الله إلى معصيته ، وبئس للرجل أن يسمى فاسقا بعد إيمان ، ﴿ ومن لم يتب ﴾ بعد أن نهاه الله : ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ .

(١) البخارى (٥٩٧٣ / ٤٠٣ / ١٠) ، ومسلم (٩٠ / ٩٢ / ١) والترمذى (١٩٦٥ / ٢٠٨ / ٣) ، وأبو داود (٥١١٩ / ٥٠ / ١٤) .

أسباب السخرية وعلاجها [الكبر] :

روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال : « إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » (١).

فالسخرية من الناس والإستهزاء بهم وازدرائهم واحتقارهم إنما يكون من المتكبرين ، فالمتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال وينظر إلى غيره بعين النقص والإزدراء ، فلا يرى ذلك الغير أهلا لإحترامه وتقديره ، والنزول على رأيه إذا أشار عليه ، فهو يهزأ به ، ويسخر منه ، ويحتقره . وكفى المستهزأ إثما أن يسخر من المؤمنين ويحتقرهم ، وقد ذكرنا في الخطبة الماضية أن السخرية من المؤمنين واحتقارهم عمل من أعمال الكافرين والمنافقين .

والواجب على المؤمن أن يربوا بنفسه عن التشبه بالكافرين والمنافقين فقد قال ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » (٢) وقال ﷺ : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ذلك أن احتقاره المسلم إنما ينشأ عن كبر في صدره ، وقد قال ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر (٣) .

قد نهى الله تعالى المؤمنين عن الكبر في آيات كثرة كما نهي النبيُ ﷺ عنه

(١) مسلم (٩١/ ٩٣/ ١) ، والترمذي (٢٠٦٧/ ٢٤٣/ ٣).

(٢)أبو داود (٤٠١٢/٧٤/١١)

(٣) مسلم (٢٥٦٤/ ١٩٨٦/ ٤) ، والترمذي (١٩٩٢/ ٢١٨/ ٣) ، أبو داود(٤٨٦١/ ٢٢٦/١٣) .

فى أحاديث كثيرة . فمن الآيات قول الله تعالى : ﴿ **ولا تمشي في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا**﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿ **ولا تصعر خدك للناس ولا تمشي في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور**﴾ [٢] ، و قد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتواضع للمؤمنين فقال : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ [٣]، وقال تعالى : ﴿ **واخفض جناح لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾ [٤] .

ولذا كان ﷺ قمة في تواضعه ، حتى إن كانت الأمة لتأخذ بيده ﷺ فتخلو به في حاجة لها ، فما ينصرف حتى يقضي حاجتها [٥]، وكان دائما يقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد » [٦] . وكان من تواضعه يكره أن يقوم له أصحابه إذا دخل عليهم . يقول أنس – رضي الله عنه : « لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك » [٧] .

وقد وصف الله أولياءه المؤمنين ﴿ **أذلة على المؤمنين** ﴾ [٨].

(١) الإسراء ٣٧ . (٢) لقمان ١٨ . (٣) الحجر : ٨٨.

(٤) الشعراء : ٢١٥ . (٥) البخاري (٦٠٧٢/ ٤٨٩/ ١٠) .

(٦) ابن حبان . (ذكره الأرناؤوط في جامع الأصول (٣٩٥/ ٧) .

(٧) الترمذي (٢٩٠٢/١٨٣/٤)

(٨) المائدة : ٥٤

وبين سبحانه أن الكبر سبب من الأسباب التي تحرم العبد التوفيق للحق ، فقال تعالى : ﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا** ﴾ [١] ، فالمتكبر لا يوفق للحق أبدا ، ولا يُهدَي سبيل الرشاد .

كما بين سبحانه أن الكبر سبب من أسباب عمى القلب . فقال تعالى: ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ [٢] . ومن أسباب عمى القلب الكبر ، فقال تعالى :﴿**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾ [٣] . أما الأحاديث عن النهى عن الكبر فهي كثيرة وكثيرة .

منها قوله ﷺ :« **لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء** » [٤].

وقوله :« **بينما رجل يمشي في حلة ، تعجبه نفسه ، مرجل جمته ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة** » [٥] .

(١) الأعراف : ١٤٦ . (٢) الحج : ٤٦ .

(٢) غافر : ٣٥

(٣) البخاري (٥٧٨٣/ ٢٥٢/ ١٠)، ومسلم (٢٠٨٥/ ١٦٥١/ ٣)، والترمذي (٤/١٧٨/٣) ، وابن ماجة (٣٥٦٩/ ١١٨١/ ٢) ،وأنس (٢٠٦/ ٨) .

(٤) البخاري (٥٧٨٩/ ٢٥٨/ ١٠) ، ومسلم (٢٠٨٨/ ١٦٥٣/ ٣) .

وقوله :« يقول الله عز وجل : العز إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني شيئا منها عذبته »(١) فالله الله عباد الله ، إياكم والكبر ، فإن الله تعالى لا يحب المتكبرين . المتكبر ممقوت من الله ، وممقوت من عباد الله ،فإن الناس لا يحبون من يتعالى عليهم . فعلى المسلم أن يخفض جناحه للمؤمنين ، وأن يكون كما وصف الله المؤمنين ﴿ **أذلة على المؤمنين** ﴾ (٢) .

عباد الله : إن الكبر مرض من أمراض القلوب ، التي تجلب لصاحبها سخط الله وغضبه وعقابه ، قال ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر» (٣)

والكبر مرض ناشىء عن مرض أولى وهو العجب ، وللعجب أسباب :

منها ظن المرء بنفسه أنه بلغ درجة الكمال في العلم ، أو في النسب ، أو في الجاه ، أو في السلطان ، أو في المال ، أو في الولد ، فقد يعجب العالم بكثرة علمه ، وكثرة أتباعه ومريديه ، وقد يعجب الرجل بكثرة ماله وولده ،وقد يعجب بجاهه وسلطانه ، وقد يعجب بحسبه ونسبه فيؤدى به العجب إلى التكبر على عباد الله ، وإذا بلغ هذه المنزلة فقد هلك .

فعلى العالم إذا رأى في نفسه إعجابا بعلمه أو كثرة أتباعه ومريديه أن يعلم أنه من الممكن أن يكون الله عز وجل قد استودعه ذاك العلم لينفع به الآخرين ، ثم

(١) أخرجه بنحوه : مسلم (٢٦٢٠ / ٢٠٢٣ / ٤) ، وأبو داود (٤٠٧٢ / ١٥٠ / ١١) وابن ماجة (٤١٧٤ / ١٣٩٧ / ٢)   (٢) المائدة : ٥٤ .

(٢) سبق قريبا .

يسلب منه ما استودعه ، وحسب العالم أن يكون حظه من العلم إعجابه بنفسه ، وتكبره عى غيره .

وعلى الرجل إذا أعجب بكثرة ماله وولده أن يتذكر ما ذكره الله في سورة الكهف عن صاحب الجنتين ،إذ قال لصحابه ﴿ **وهو يحاروه أنا أكثرمنك مالا وأعز نفرا** ﴾ (١) .قال له صاحبه وهو يحاوره : ﴿ **إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا فلن تسطيع له طلبا .وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية عى عروشها ، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا** ﴾ (٢)

وعلى الرجل إذا أعجب بحسبه أن يتذكر أن الناس جميعا في النسب سواء فكلهم لآدم وآدم من تراب ، ولذا قال القائل :

الناس من جهة الأصل أكفاء   أبوهم آدم والأم حواء .

فإن يكن لهم في أصلهم شرف   يتفاخرون به فالطين والماء .

وعلى الرجل إذا أعجب بجاهه وسلطانه أن يعلم أنه ما علا شيء وارتفع .إلا كما ارتفع وقع .

فيا أخوة الإسلام : إياكم والتكبر على عباد الله فإن التكبر على عباد الله يجر إلى نوعين آخرين من أنواع الكبر ، هما : التكبر على الله ،والتكبر على رسول الله .

(١) الكهف : ٣٤ .

(٢) الكهف : ٣٧-٤٣ .

والتكبر على الله يكون برفض الخضوع والإنقياد والإستسلام له ، يكون برفض طاعته وبرفض أوامره ، وإنما كان التكبر على الله سببه التكبر على عباد الله لأن الواجب على عباد الله أن يتناصحوا فيما بينهم ، ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر ، فالمتكبر على عباد الله إذا جاءه الحق من أحد منهم تكبر عليه ، ورفض ما أتاه به ،فيكون رافضا للحق ، متكبرا عليه ، والله يقول : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ (١) ، ويقول ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ،ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا** ﴾ (٢) .

ومن قرأ القرآن تبين له ذلك جليا من رفض إبليس السجود لآدم ، لظنه أنه خير منه فلما أعجب إبليس بنفسه ، رأى نفسه خيرا من آدم ، فتعالى عن السجود له وكان في ذلك رفضه لأمر الله عز وجل .

وأما التكبر على رسول الله فيكون أيضا بعدم طاعته ، وعدم اتباعه ،وكفى بذلك إثما ، يقول تعالى : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ (٣) ، ويقول تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد**

(١) غافر : ٦٠.

(٢) النساء : ١٧٢ ، ١٧٣.

(٣) النور : ٦٣ .

وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ﴾ (١) .

فمن رفض الإذعان لإ مر رسول الله وسنته فهو متكبر على رسول الله ، والمتكبر على رسول الله كالمتكبر على الله سواء . عن سلمه بن الأكوع – رضي الله عنه – : « أن رجلا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال: «كل بيمينك» . قال : لا أستطيع . قال : « لا استطعت ، ما منعه إلا الكبر . » قال : فما رفعها إلى فيه » (٢) فالله الله عباد الله ، كونوا كما وصفكم الله ﴿ **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ﴾ (٣) . ﴿ **أشداء علي الكفار رحماء بينهم** ﴾ (٤) ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ..** ﴾ الآيتان .

(١) النساء ٤١ ، ٤٢ .

(٢) مسلم : ٢٠٢١/ ١٥٩٩/ ٣) .

(٣) المائدة : ٥٤.

(٤) الفتح .

النهي عن الظن ، والتجسس ، والغيبة :-

يقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بضعكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحما أخيه ميتا ؟ فكرهتموه ، واتقوا الله ،إن الله تواب رحيم** ﴾ .

نهت الآية الكريمة أولا عن الظن ، لأن الظن السيء هو سبب الأمراض الثلاثة التي نهت عنها الآية السابقة ، وهو أيضا سبب للمرضين المذكورين بعده .

الظن السيء بالناس يحمل على احتقارهم والسخرية منهم ، يحمل على همزهم ولمزهم ، والظن السيء هو الدافع إلي التجسس ، والباعث على الغيبة .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ يا من صدقتم بالله ورسوله ، وبما أنزل الله على رسوله : ﴿ **اجتنبوا كثيرا من الظن إن البعض إثم** ﴾ نهى سبحانه عباده المؤمنين عن كثير من الظن لأن قليلا من الظن إثم فهو ينهّى عن الكثير خشية الوقوع في ذاك القليل.

والظن هو التهمة من غير دليل ، كأن يتهم الرجل غيره بشيء من الفواحش ، ولم يظهر علي ذلك الغير أي دليل على ارتكابه لهذه الفواحش .

وقال بعض السلف : الظن : هو أن تظن بأهل الخير من المؤمنين شرا .

فهذه الآية تعلمنا أن الواجب على المؤمنين أن يعامل بعضهم بعضا علي أساس ما يظهر منهم ،وأن يذروا السرائر لله علام الغيوب . فما لم يظهر من الرجل سوء أو شر فالواجب إحسان الظن به ، فإن الله نهى عن الظن السيء : ﴿ **اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ . ومما نهينا عنه إساءه الظن بالله رب العالمين ،بأن يظن

العبد مثلاً أن الله لن يغفر له فهذا الظن لا يجوز والواجب على المؤمن أن يحسن الظن بربه ، فإن الله قد قال في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي » (١).
وقال النبي ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » (٢) فالله الله عباد الله: « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » (٣) .، والظن السيء صفة المنافقين والمشركين ، قال تعالى : ﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء** ﴾ (٤) . فالكافرون والمنافقون هم الذين يظنون الظن السيء بالله وبرسوله وبالمؤمنين ، والواجب علي المسلم أن يخالفهم ، وأن لا يتشبه بهم في أقوالهم ،ولا في أفعالهم ، ولافى عباداتهم ، ولا في أعيادهم ،ولا في مظهرهم ، فقد قال ﷺ : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » (٥)

ولما نهى الله تعالى عن الظن أتبعه بالنهي عن التجسس ، والتجسس هومحاولة هتك ستر الآخرين ، والبحث عن عوراتهم ، فلا يجوز لمسلم أن يتتبع عورات أخيه ، ولا يجوز لمسلم أن يبحث عن عيوب أخيه ، فإن رسول الله ﷺ بين أن « من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » (٦). وبالعكس : من فضح مسلماً فضحه الله

(١) البخاري (٧٥٠٥/٤٦٦/ ١٣) هكذا مختصرا ،ومسلم (٢٦٧٥/ ٢١٠٢/ ٤) في حديث طويل ، وكذا ابن ماجة (٣٨٢٢/ ١٢٥٥/ ٢) .

(٢) مسلم (٢٨٧٧/ ٢٢٠٥/ ٤) ، وأبو داود (٣٠٩٧/ ٣٨٢/ ٨) ،وابن ماجة (٤١٦٧/ ١٣٩٠/ ٢) .

(٣) البخاري (٥١٤٣/ ١٩٨/ ٩) ،ومسلم (٢٥٦٣/ ١٩٨٣/ ٤) ، وأبو داود (٤٨٩٦/ ٢٥٩/ ١٣)، والترمذي (٢٠٥٥/ ٢٤٠/ ٣) .

(٤) الفتح :٦ . (٥) سبق قريبا.

(٦) مسلم (٢٦٩٩/ ٢٠٧٤/ ٤) ،وأبو داود (٤٩٢٥/ ٢٨٩/ ١٣) ، والترمذي (١٩٩٥/ ٢١٨/ ٣) . وابن ماجه (٢٥ / ٨٢ / ١) .

في الدنيا والآخرة ، قال ﷺ : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم اتبع الله عورته ، ومن تبع الله عورته يفضحه ولو في بيته** » (١) ، إن تتبع عورات المسلمين ومحاولة البحث عن أسرارهم وعيوبهم عنوان النفاق أو ضعف الإيمان فما يتتبع عورات المسلمين إلا منافق أو ناقص الإيمان ،ولذا قال ﷺ : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم** » (٢) . وإنما نهى الله تعالى عن التجسس عقب النهى عن الظن السىء لأن القلب إذا أشرب سوء الظن حمله ذلك ولابد على التجسس ، فإن الإنسان بفطرته لا يكتفى بالهواجس ولا بالظنون ،بل يحاول أن يتحقق ،ولا يمكن التحقق إلا بالتجسس ،ولذا فإننا نرى أن هذا السداسي الجاهلى ، الذي يمثل هذه الآفات الست ، مرتبط بعضه ببعض : السخرية ، الهمز ، اللمز ، الظن ، التجسس ، الغيبة ، فالواجب على المسلم أن يعمل على السلامة من هذه الآفات كلها .

أما النهي الثالث في الآية فهو النهي عن الغيبة ، ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضا**﴾ . وما هي الغيبة ؟ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوما : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « **ذكرك أخاك بما يكره** » . قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقول : قال : « إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته« (٣)

(١) أبو داود (٤٨٥٩/ ٢٢٤/ ١٣) .

(٢) مسلم (٢٥٨٩/ ٢٠٠١/ ٤) ، وأبوداود (٤٨٥٣/ ٢٢٠/ ١٣) ، والترمذي (١٩٩٩/ ٢٢٠/ ٣) .

(٣) أبو داود (٤٨٥٧/ ٢٢٣/ ١٣) .

إن رجالا أباحوا لأنفسهم الغيبة زاعمين بأنهم صادقون ، يقولون : نحن لا نفترى عليه ، إنما نذكر ما فيه ، فهؤلاء ، نقول : اقرءوا الحديث : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ قال : « **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته** » . هذه هي الغيبة : أن تذكر أخاك بمايكره مما هو فيه . وأما ذكرك إياه بما ليس فيه فهذا بهتان عظيم .

قال العلماء : الغيبة على ثلاث مراتب : الغيبة ، والإفك ، والبهتان .

أما الغيبة : فأن يذكر الرجل الآخرين بما فيهم مما يكرهون .

وأما الإفك : فهو أن يسمع الرجل من غيره كلاما عن غيره فينقله ويخوض فيه .

وأما البهتان : فهو رمي الآخرين بما ليس فيهم ، من غير سلطان ولا برهان .

ولقد قبح الله الغيبة ، وصورها بأبشع صورة تنفيرا للمؤمنين عنها ، فقال تعالى: ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟** ﴾ أيحب أحدكم أن يجلس على جيفة مؤمن يقطع منها ويأكل ؟ ﴿ **فكرهتموه** ﴾ فكرهتم الأكل من الجيفة ، لأن طباعكم تنفر منها ، فإذا كرهتم ذلك طبعا فاكرهوا الوقوع في أعراض الناس شرعا، فإن الله ينهاكم عن الوقوع في أعراض المؤمنين .

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» (١)

(١) أبو داود (٤٨٥٧/ ٣٢٣/ ١٣)

معشر الإخوة : لقد عظم الله ورسوله الغيبة تعظيما ، حتى قالت عائشة –رضي الله عنها – : قلت يا رسول الله ، حسبك من صفية قصرها . قال : « لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته (١) » لقد قلت كلمة منتنة جدا ، ،لو مزجت بماء البحر لمزجته ، أي غيرت طعمه ولونه وريحه من نتنها . كلمه « قصيرة » . هكذا يقول فيها رسول الله ﷺ . ترى لو سمع رسول الله ﷺ كلمة من الكلمات التي يغتاب الناس بها اليوم ، ماذا كان يقول ؟ فاتق الله يا عبد الله المسلم ، اتق الله في نفسك ، واتق الله في اخوتك المؤمنين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم** ﴾ .

يا عبد الله المسلم : إن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – طلب من رسول الله ﷺ الوصية ، فكانت وصية رسول الله له : أمسك عليك هذا ، فقال معاذ : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله ؟! فقال ﷺ : « **ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟** » (٢)

ولذا قال ﷺ : « **من يضمن لي ما بين رجليه ،وما بين لحييه ،أضمن له الجنة** »(٣) ذلك أن أكثر ما يورد الناس النار هو اللسان والفرج .

نسأل الله أن يعيننا على حفظ ألسنتنا وفروجنا ،إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

(١) أبو داود (٤٨٥٤/ ٢٢١/ ١٣) والترمذي (٢٦٢٤/ ٧٢/ ٤) .

(٢) سبق قريبا .

(٣) البخاري (٦٤٧٤/ ٣٠٨/ ١١) ، والترمذي (٢٥٢٠/ ٣١/ ٤) بنحوه .

وجوب التوبة :

تحدثنا فيما مضى عن الآيتين : الحادية عشرة ، والثانية عشرة من سورة الحجرات ، وقلنا إنهما تضمنتا النهي عن ذاك السداسي الجاهلي « السخرية ، واللمز والنبذ ، و الظن السيء ، والتجسس ، و الغيبة ، ومما يلفت النظر في الآيتين : أن الأولى منهما ختمت ،بقوله تعالى : ﴿ **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ . وأما الثانية فقد ختمت بقوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ . فختام الأولى تضمن التهديد لمن اقترف من السخرية أو اللمز أو النبز شيئا ثم لم يتب ، وزج به في عداد الظالمين ، وأما ختام الثانية فإنه أشار إشارة لطيفة إلي سعة رحمة الله وأن على كل من اقترف من الظن السيء أو التجسس أو الغيبة شيئا أن يتوب إلى الله ويستغفره ، فإن الله تواب رحيم .

فحديثنا الآن إذن عن التوبة ، فالتوبة واجبة على من اقترف من ذاك السداسي شيئاً أو من غيره من القبائح والمنكرات ، لأن الله تعالى أمر بالتوبة ، والأمر للإيجاب ، كما يقول العلماء ، قال تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى توبة نصوحا** ﴾(٢) ، ولقد كان ﷺ يأمر بالتوبة ويحث عليها ويرغب فيها ، فكان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلي الله واستغفروه ، فإني أتوب في اليوم مائة مرة » (٣) . فإذا كان هذا شأنه ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فإن غيره أولى بالإستغفار والتوبة ، ولقد كان ﷺ إذا حث أصحابه على التوبة بين لهم مدى

---

(١) النور ٣١ . (٢) التحريم ٨ . (٣) مسلم (٢٧٠٢/ ٢٠٧٥/ ٤) .

فضل الله عز وجل ، وسعة رحمته وأنه سبحانه لا يبالي بالغفران لعبده وإن بلغت ذنوبه عنان السماء ، فكان ﷺ يقول :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) . ويقول : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » (٢) .

ويقول : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٣) .

وكان ﷺ يخبرهم أن الله يفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه ،فيقول : « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ،فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ،فأيس منها ، فأتي شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » (٤)

معشر المسلمين : إن رجالا أسرفوا على أنفسهم في المعاصي والذنوب ، ربما استيقظ ضميرهم ، ففكروا في التوبة ،فجاءهم الشيطان فقنطهم من رحمة الله فرجعوا عما هموا به من التوبة والإنابة إلي الله ،لهؤلاء نذكر هذا الحديث (٥)عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ،وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدا ﷺ

(١) مسلم (٢٧٥٩/ ٣١١٣/ ٤) . (٢) مسلم (٢٧٠٣/ ٢٠٧٦/ ٤) .

(٣)ابن ماجة (٤٢٥٣/ ١٤٢٠/ ٢) ، والترمذي (٣٦٠٣/ ٥) .

(٤) مسلم (٢٧٤٧/ ٢١٠٤/ ٤) .

(٥)البخاري (٤٨١٠/ ٥٤٩/ ٨) ، ومسلم (١٢٢/١١٣/١) ، والنسائي (٧/٨٦) .

فقالوا : إن الذي تقول وتدعوا لحسن ، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ؟ فنزل : **﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ،ومن يفعل ذلك يلق أثاما .يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحا فأؤلئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾** (١) ، ونزل : **﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ،إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾** (٣) .

فيا من أسرف علي نفسه في الذنوب والمعاصي : **﴿ لا تقنطوا من رحمة الله﴾** . إن الله قد دعا إلى التوبة من قال عزير ابن الله ،ومن قال المسيح ابن الله ، ومن قال يد الله مغلولة ، ومن قال إن الله فقير ونحن أغنياء دعاهم جميعا إلي التوبة فقال : **﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾** (٣).

ولعل ما يبعث في القانطين الرجاء والأمل هذا الحديث الذي رواه البخاري ومسلم : عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ،فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب ،فأتاه فقال :إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ،فقتله ، فكمل به مائة ،ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلي أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسا يعبدون الله تعالي ،فاعبد الله معهم ،ولا ترجع إلي أرضك فإنها أرض سوء.

(١) الفرقان ٦٨،٧٠.

(٢) الزمر ٥٣ .

(٣) المائدة ٧٤ .

فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ،فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلي الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم – أي حكما – فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدني فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلي الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة » (١)

معشر الإخوة : هذه هي الآيات والأحاديث التي جاءت في الأمر بالتوبة والحث عليها وبيان مدى سعة رحمة الله ،ونهى الذين أسرفوا على أنفسهم عن القنوط من رحمة الله فما هي شروط التوبة ؟

إن الله تعالى حين أمر بالتوبة وصفها بوصف لا تقبل إذا لم تتصف به ، فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾ (٢) . قال العلماء : إن شروط التوبة النصوح هي :

أولا : الإقلاع عن الذنب ، فلا يجوز أن يقول العبد : تبت إلي الله ،وهو مقيم على الذنب .

ثانيا : الندم على ما فات .

ثالثا: العزم عي عدم العودة إلى الذنب أبدا .

رابعا : أن يتوب إلي الله وهو فى كامل صحته وقوته ،لا يؤخر التوبة حتى إذا جاءه الموت قال تبت إلى الله ،فإن التوبة في هذه الساعة لا تقبل . قال تعالى :

---

(١)مسلم (٢٧٦٦/ ٢١١٨/ ٤) وهذا لفظه ، والبخاري (٣٤٧٠/ ٥١٢/ ٦) مختصراً .

(٢) التحريم ٨ .

﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ،ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما** ﴾ (١)

الخامس : قال العلماء إذا كان الذنب الذي يتوب منه متعلقا بحقوق الآدميين فإن من شروط التوبة أن يرد الحقوق إلى أهلها إن استطاع ،أو يستحلهم إن أمكن ، ما لم يترتب على استحلالهم مفسدة ، فإن ترتب على استحلالهم مفسدة ، فعليه أن يتوب فيما بينه وبين الله ، وأن يكثر من الحسنات ، حتى يستوفي منه أصحاب الحقوق حقوقهم يوم القيامة ، كما أخبر النبي ﷺ في قوله : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدرمظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ منه سيئات صاحبه ،فحمل عليه » (٢)

وأخيرا إلي العصاة والمذنبين : إذا من الله عليكم بالتوبة فعليكم بهاتين النصيحتين :

الأولى : أن تغيروا البيئة التي عشتم فيها قبل التوبة ، فإن استمراركم فى صحبة أهل السوء لا يساعدكم على الثبات على التوبة ، بل يحملكم على الإنتكاس والعودة إلى الذنوب ، ولذا قال العالم للقاتل : « انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ».

---

(١) النساء ١٧، ١٨ . (٢) البخاري (٢٤٤٩/ ١٠١/ ٥) .

الثانية : عليكم بالإكثار من الأعمال الصالحة ، حتى تكفر عنكم ذنوبكم الماضية ، قال تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ **وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى** ﴾ (٢) .

(١) هود ١١٤ .

(٢) طه ٨٢.

المبدأ السادس :

إن أكرمكم عند الله اتقاكم :

روى مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ما تعدون الرقوب فيكم ؟ قال: قلنا : الذى لا يولد له ، قال :« ليس ذاك بالرقوب ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا . قال : « فما تعدون الصرعة فيكم ؟» قال : قلنا : الذى لا يصرعه الرجال . قال : « ليس بذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » (١)

وعن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتى ، يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقد قذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » (٢).

وروى البخارى فى صحيحة عن سهل بن سعد الساعدى قال : مر رجل عل رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : رجل من أشراف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع . قال :

(١) مسلم (٢٦٠٨ / ٢٠١٤ / ٤) ، وأخرج أبو داود ذكر « الصرعة » وحدها دون « الرقوب (٤٧٥٨ / ١٣٧ / ١٣) .

(٢) مسلم (٢٥٨١ / ١٩٩٧ / ٤) ، الترمذى (٢٥٣٣ / ٣٦ / ٤)

فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ : ما رأيك فى هذا ؟ فقال: يا رسول الله : هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . قال رسول الله ﷺ : هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » (١)

إخوة الإسلام : هكذا كان رسول الله ﷺ يغير المفاهيم ، ويصحح القيم والموازين التى يوزن بها الناس .

ففى الحديث الأول : سألهم عن الرقوب ، والرقوب عند العرب الذى لا يعيش له ولد ، فلما أجابوه بما يعلمون ، غير لهم ما يفهمون ، وصحح لهم ما يعتقدون ، وقال : إنكم تعتقدون أن الرقوب هو الذى لا يعيش له ولد ، وليس كذلك ، ولكن الرقوب شرعا هو الرجل الذى لا يموت له أحد من أولاده فى حياته ، فيصبر على موته فيكتب له أجر على صبره، وأجر على مصيبته فى موت ولده .

ثم سألهم عن الصرعة ما هو ؟ فقالوا : الصرعة فينا هو الرجل القوى الشديد ، الذى يصرع الرجال ولا يصرعونه ، فغير لهم هذا الفهم ، وصحح لهم هذه العقيدة ، وقال : ليس كذلك شرعا ، إنما الصرعة في الشرع هو من يملك نفسه عند الغضب ، فالذي يملك نفسه عند الغضب ، قل من يستطيع أن يتخلق بمثل خلقه ، وقل من يستطيع أن يدرك ما أدركه .

وفى الحديث الثانى : سألهم : أتدرون ما المفلس ؟ فأجابوه بمفهومهم وبقيمهم وموازينهم المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ؟ فقال : ليس كذلك ،

(١) البخارى (٥٠٩١ / ١٣٢ / ٩) .

المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

فهذا هو المفلس حقاً ، هذا هو المفلس شرعاً هذا هو المفلس بميزان الإسلام وقيم الإسلام ، أما الذى لا درهم له ولا متاع فليس بمفلس ، لأنه إما أن يموت فيتخلص من الفقر ، وإما أن يستغنى يوماً ما ، فالأيام دول ، وفقير اليوم غنى الغد ، وغنى اليوم فقير الغد ، وهكذا .

وفى الحديث الثالث : سأل النبى ﷺ جليسه عن الرجل الذى مر بهما : « ما تقول فى هذا ؟ فقال : هذا رجل من أشراف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع » لشرفه وحسبه ونسبه ، وبهذا كله يقيم الناس بعضهم بعضا ، وبهذا كله يزن الناس بعضهم بعضا ، بالشرف ، بالحسب ، بالنسب بالوظيفة، بالمال ، بالدرجة ، هذه هي قيم الناس وموازينهم . فسكت النبى ﷺ حتى مر رجل أخر ، فقال لجليسه : « ما تقول فى هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حرى إن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله » فقال ﷺ مصححا المفاهيم لصاحبه ، ومصححا القيم والموازين عنده، قال مشيراً إلى الفقير : « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » . هذا الفقير بالتقى وبالإيمان وبالعمل الصالح خير من ملء الأرض من مثل ذاك الغنى الذى ليس فى قلبه إيمان ولا تقوى ولا ورع ولا خشية لله عز وجل .

فبالإيمان والتقوى والعمل الصالح يقيم الناس فى الإسلام ، وبهذا كله يوزنون وهذا هو المبدأ السادس من المبادىء الأساسية ، التى تقررها سورة الحجرات لإقامة المجتمع المسلم يقول تعالى فى الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ .

هذا نداء من النداءات التى تكررت فى سورة الحجرات ، ولكنه نداء ليس له نظير فى السورة كلها ، لقد كانت النداءات السابقة : **﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾** أما هذا النداء فإنه **﴿ يا أيها الناس ﴾** يا أيها المختلفون أجناسا وألوانا ، يا أيها المتفرقون شعوبا وقبائل **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم ﴾** فالذى يناديكم هو الذى خلقكم ، وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل ، إنها ليست التناحر والخصام ، وإنما التعارف والوئام ، ما خلق الله الناس ليتناحروا وما خلقهم ليتقاتلوا ، وما خلقهم ليتباغضوا : **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾** فالأصل واحد **﴿ من ذكر وأنثى ﴾** . و**﴿ جعلناكم شعوبا وقبائل ﴾** لا لشىء ، إلا **﴿ لتعارفوا ﴾** التعارف ، والوئام ، والمحبة ، والمودة ، والإخوة ، هي الغاية من جعل الناس شعوبا وقبائل ، كما بين الله تعالى الحكمة والغاية من خلق الخلق بقوله : **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾** (١) كذلك بين هنا الحكمة والغاية من جعل الناس شعوبا وقبائل ، وهى **﴿ لتعارفوا ﴾** .

وإذا كان أصلكم واحداً ، إذا كنتم جميعا من آدم وحواء ، فلا يجوز لأحد أن

(١) الذاريات : ٥٦

يبغى على أحد ، ولا يجوز لأحد أن يهزأ بأحد ولا يجوز لأحد أن يسخر من أحد ، فكلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** لا قيمة للمال ، لا قيمة للولد، لا قيمة للحسب ، لا قيمة للنسب **﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾** (١). **﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾**(٢) . **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾**(٣) **﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد﴾**(٤).

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ هذا هو الميزان الذى قررة الإسلام ، هذا هو الميزان الذى قرره القرآن ، هذا هو الميزان الذى عمل رسول الله جاهدا على ترسيخه وتثبيته فى قلوب أصحابه ، سألوه يوماً فقالوا : يا رسول الله ، من أكرم الناس قال : أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : فيوسف نبي الله ، ابن نبى

(١) المؤمنون ١٠١ . (٢) سبأ ٣٧ . (٣) الكهف ٤٦ .
(٤) آل عمران ١٤ ، ١٥ .

الله ابن نبى الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (١).

معشر الإخوة : ما هى التقوى ؟ ما هى التقوى التى يزن الله سبحانه بها عباده ؟ ما هى التقوى التى يقيم الله سبحانه بها الناس ؟

إن التقوى تعريفها الجامع المستوعب : هى القيام بالواجبات وترك المحرمات . أن تقوم بما فرض الله عليك من صلاة وزكاة وصيام وحج وغير ذلك ، وأن تترك ما نها له الله عنه من ربا وزنا ورشوة وسرقة وإيذاء جار وعقوق والدين ، وغير ذلك أن يجعل العبد بينه وبين الله تعالى شيئا يقيه من سخط الله وغضبه أن يقيك شىء من عذاب الله إلا أن تقوم بأوامره وتترك نواهيه .

إخوة الإسلام : إن التقوى هى وصية الله للأولين والآخرين ، قال تعالى **﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾**(٢).

ولقد كان رسول الله ﷺ يوصى بها أصحابه ، ويأمرهم بها فى المحافل العامة، والمجامع الكبيرة وكان إذا استوصى قال : أوصيك بتقوى الله(٣) . وكان إذا بعث بعثا أمر عليهم أحدهم ثم وصاه في نفسه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيراً(٤).

(١) االبخارى (٣٣٨٣ / ٤١٧ / ٦) . (٢) لنساء ١٣١ .

(٣) كما قال لمعاذ بن جبل وأبى ذر رضى الله عنهما ، « اتق الله حيثما كنت » رواه الترمذى (٢٠٥٣ / ٢٣٩ / ٢) .

(٤) مسلم (١٧٣١ / ١٣٥٦ / ٣) ، والترمذى (١٤٢٩ / ٤٣١ / ٢) .

ولقد علق الله سبحانه السعادة والفلاح والنجاح والفوز فى الدنيا والآخرة على تقواه : فقال تعالى : **﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب (١) ﴾** .

﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ (٢) . **﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾** (٣)

وقال تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ وهذه المعية هى معية النصر والتمكين ، وهى التي ذكر رسول الله ﷺ أبا بكر بها ﴿ إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ (٤) . وهى التى ذكر بها موسى بني إسرائيل وقت خروجهم من مصر **﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴾** (٥).

إخوة الإسلام : إنما جاء هذا المبدأ السادس بعد المبدأ الخامس ، وهو تعظيم حرمات المسلمين ، بعد أن نهى الله تعالى عن ذلك السداسى الجاهلى « السخرية » واللمز ، والنبز والظن السىء والتجسس والغيبة لما نهى الله سبحانه عن هذه الآفات والأمراض ذكر، مبدأ المساواة بين الناس ، وأنهم فى الأصل سواء **﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

(١)الطلاق ٢ ، ٣ .

(٢،٣) الصلاق ٤ ، ٥ .

(٤) النحل ١٢٨ .

(٥) التوبة ٤٠ .

ولما كانت التقوى فى القلوب ، ولا يطلع عليها إلا الله ، قال تعالى : ﴿ **إن الله عليم خبير** ﴾ عليم بالمتقين ، خبير بهم ، فلا يقولن أحد أنا من المتقين لأن الله وحده هو الذى يعلم ، ثم إن فى هذا القول تزكية للنفس ، والله تعالى قد نهانا عن تزكية أنفسنا ، فقال ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى** ﴾ (١) . وإذا كنا قد نهينا عن تزكية أنفسنا ، فقد نهينا أيضا عن الجزم بتزكية الغير وعلمنا رسول الله ﷺ : « إذا كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانا ، والله حسيبه ، ولا يزكى على الله أحدا ، أحسب كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منه (٢).

(١) النجم ٣٢ .

(٢) البخارى (٢٦٦٢ / ٢٧٤ / ٥) ، مسلم (٣٠٠٠ / ٢٢٩٦ / ٤) ، وبنحوه ابن ماجه (٣٧٤٤ / ٢٣٢ / ٢) ، ابن داود (٤٧٧٩ / ١٥٦ / ١٣) .

المبدأ السابع

حقيقة الإيمان :

قديماً سئل أحد العلماء : أليس الله يقول ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾(١) فأين عزة المؤمنين ؟ فأجاب العالم : لا تقل أين العزة ؟ ولكن قل : أين المؤمنون ؟ إن وعد الله حق . ولن يخلف الله وعده وقد كتب الله العزة للمؤمنين ، ولكن هذه العزة فرض الله لها ثمنا معلوماً ،وجعل لها أسبابا معروفة فإذا جاء المؤمنون بالثمن ، وأخذوا بالأسباب أعزهم الله تعالى ، وإذا ضنوا بالثمن ،وقعدوا عن الأخذ بالأسباب تخلف عنهم وعد الله تعالى .

إخوة الإسلام : إن الإيمان ليس مجرد كلمات تنطق ، ولا حروف ترجمها اللسان ،ولكن الإيمان عقيدة وعمل ،عقيدة سليمة صحيحة ، تستقر فى القلوب ، وتتمكن منها ، ثم تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أعمالا صالحة ، من صلاة وصيام، وصدقة ونسك ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وبر بالوالدين وصلة للأرحام ، وإحسان للجيران ، وغير ذلك من كل ما يحبه الله ويرضاه . ولذا أثر عن الحسن البصرى رحمه الله قوله : ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقة العمل .

(١)المنافقون ٨ .

هذه هى حقيقة الإيمان ، كما يقررها المبدأ السابع والأخير من مبادىء سورة الحجرات قال تعالي : ﴿ **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم** ﴾ الخ السورة . قيل إن هذه الآيات نزلت فى جماعة من الأعراب أسلموا ، ثم جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله آمنا بك وصدقناك ، واتبعناك من غير قتال ، وتركنا العشائر والأموال ، وما من قبيلة من العرب إلا قاتلتك حتى دخلت فى الإسلام كرها ، ولكنا آمنا بك من غير قتال فلنا عليك بذلك حق . فأنزل الله تعالى الآيات .

﴿ **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ فهناك فرق كبير بين الإسلام الإيمان ، الإسلام علانية ، والإيمان عقيدة فى القلب ، الإسلام فى الظاهر ، استسلام وانقياد وخضوع الجوارح لله ،وإتيانها لما يحبه الله ويرضاه ، أما الإيمان فمحله القلب ، ولا يطلع عليه إلا الله عز وجل ، والله هو الذى يقول لكم معشر الأعراب لم تؤمنوا فالإيمان مراتب ودرجات ، وهو يزيد وينقص ،وهو يتفاوت فى القلوب ، بل ويختلف فى القلب الواحد من حين إلى حين . فأحياناً يرى المسلم نفسه فى أعلى درجات الإيمان ، وأحيانا يشعر أن إيمانه فى الحضيض ، ذاك شيء لا ينكر ، ذاك شيء محسوس وملموس ، كل منا يراه ،ويجده فى قلبه، أحيانا تجد انشراحاً فى صدرك ، وسعة فى قلبك وقوة فى إيمانك وزيادة فى يقينك و أحيانا تجد نفسك على ضد هذا تماماً ، « **قل لم تؤمنوا** » . ولكن يكفيكم أن تقولوا « أسلمنا » فإن الكافر إذا قال لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فقد دخل في الإسلام ، أما الإيمان فإنه يحتاج إلي جهاد

كبير ، وزمن طويل ، حتى يستقر فى القلوب ويتمكن منها .

وعلى كل حال ، وإن كنتم مسلمين ، لم يتمكن الإيمان من قلوبكم ، فاعلموا : أنه ما من عمل صالح تعملونه إلا أثابكم الله عليه ، ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما** ﴾ (١) ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا** ﴾ أى لا ينقصكم من ثواب أعمالكم الصالحة شيئا ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ .

ثم نهاهم الله عن قولهم آمنا ، لأن فى هذا القول تزكية لأنفسهم ، وقد نهينا عن تزكية أنفسنا قال تعالى :﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى** ﴾ (٢) . ولذا علمنا رسول الله ﷺ كيف يمدح الرجل أخاه فقال : « من كان منكم مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانا والله حسيبه ، ولا يزكى على الله أحدا ، أحسب كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منه » (٣) .

﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم** ﴾ . إن كنتم مؤمنين فالله يعلم ، وإن كنتم غير ذلك فالله يعلم ، فلم تمنون على رسول الله بإسلامكم ، وتقولون : لنا عليك حق ، ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾ .

---

(١) النساء ٤ . (٢) النجم ٣٢ .

(٣) سبق قريبا.

إن الإيمان من أجل نعم الله سبحانه على المسلم ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ (١) ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ (٢) ولكن أجل هذه النعم وأعظمها وأكثرها وأفضلها نعمة الإيمان ،وما قيمة الحياة من غير إيمان ؟ !وما قيمة العبد من غير إيمان ؟! إن الحياة بغير إيمان حياة بهيمية ، بل إن البهائم خير من الكافر ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾ (٣) .

فإذا من الله على العبد بالإيمان ، فليعرف لله فضله ،، ولا يمن على الله ورسوله بإيمانه ، فلولا الله ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا ، ولذا قال تعالى حكاية عن أهل الجنة أنهم لما دخلوها قالوا : ﴿ **الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** ﴾ (٤) .

فلما نهاهم عن المن بالإسلام والإيمان ، وأعلمهم أن الإيمان لم يدخل قلوبهم ، كأنهم قالوا : فما هي حقيقة الإيمان ؟ وكيف نكون مؤمنين ؟ فقال تعالي : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ .

---

(١) النحل ٥٣ .

(٢) النحل ١٨ .

(٣) البينة ٦ .

(٤) الأعراف ٤٣ .

(٥) فصلت ٣٠ .

﴿ **إنما المؤمنون حقا الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا** ﴾ لم يشكوا ، ولم يتطرق إلي قلوبهم ريب ، ولم تفتنهم الشبهات والشكوك ، التى يثيرها أعداؤهم ليردّوهم عن دينهم إن استطاعوا ، إنما آمنوا ثم ثبتوا على هذا الإيمان فلم يبدلوا ولم يغيروا كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ أي ثم استقاموا على هذه الكلمة ، ثم استقاموا على الإيمان ، ثم استقاموا علي التوحيد ، فلم يلبسوا إيمانهم بظلم ، إنما استقاموا على الدين الخالص ، والتوحيد الصافى ﴿ **قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ ثم ثبتوا على هذه الكلمة وأقاموا الدين كما أمرهم الله ولم يروغوا روغان الثعلب .

﴿ **إنما المؤمنون الذين امنوا بالله وسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ والجهاد فى سبيل الله أمر الله به كما أمر بالصلاة والصيام والزكاة وغيرها من الفرائض ، قال تعالى :﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ (١) فأمر سبحانه بالجهاد فى سبيله كما أمر بالركوع والسجود وفعل الخير ، ذلك أن الجهاد فى سبيل الله فريضة من فرائض هذا الدين وركن من أركان هذا الإسلام بل إن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام ، كما صرح بذلك الرسول ﷺ فى قوله « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » (٢) .

---

(١) الحج ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) هذا من جملة حديث معاذ بن حبل الذى وصاه فيه رسول الله ﷺ بحفظ لسان ، وقد سبق تخريجه قريباً .

ولقد بين رسول الله ﷺ أن ترك الجهاد فى سبيل الله موجب للذل والهوان ، فقال : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا ، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم » (١).

والجهاد فى سبيل الله فرع عن أصل ، والأصل هو جهاد النفس ، فإذا لم يجاهد العبد نفسه على فعل ما أمرت بفعله ، وترك ما أمرت بتركه ، إذا لم يجاهدها على ذلك ، ولم يحاربها من أجله ، فلا يمكنه أن يجاهد أعداء الله في الخارج ، وكيف يمكن للإنسان أن ينتصر على عدوه الخارجى وعدوه الداخلى قاهر له ، ومتسلط عليه ، لا يمكن أبدا الانتصار على الأعداء فى الخارج إلا بعد الانتصار على أعداء الداخل والعدو الداخلى هو النفس فوجب البدء بجهاد النفس قبل جهاد الأعداء فهذان عدوان أمرت بجهادهما أيها المسلم .

وهناك عدو ثالث بين هذين العدوين يصدك عن جهادهما ، ويقعدك عن محاربتهما ، ألاوهو الشيطان ، فكانت محاربة الشيطان هى الأصل ، وجهاده هو الأساس لجهاد النفس والأعداء ، ولذا قال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدوفاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ (١) فأعداؤك يا عبد الله المسلم ثلاثة : نفسك ، والشيطان ، والعدو الخارجى ، وهذا الثالث قسمان الكفار والمنافقون ، وأرباب الظلم والبدع والمنكرات ، وقد فرض الله عليك جهاد

(١) أبو داود (٣٤٤٥ / ٣٣٥ / ٩) وبيع العنية هو أن يبيع شيئا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشترى ، ثم يشتريه قبل قبضة بثمن نقد أقل من ذلك القدر أ هـ .

هؤلاء جميعا ، ووعدك بمغفرة الذنوب ، وتكفير السيئات ، ورفع الدرجات ، وأن يمدك بمدده وينصرك على أعدائك ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله و تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾ (٢) .

والآن يا عبد الله وقد عرفت أعداءك ، وعلمت أن جهادهم واجب عليك ، فكيف تجاهدهم ؟ قال العلماء : إن جهاد النفس على أربع مراتب :

المرتبة الأولى : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى بعث الله به محمداً ، والذى لا فلاح لها ولا سعادة فى الدنيا والآخرة إلا بتعلمه .

المرتبة الثانية : أن يجاهدها على العمل بهذا العلم ، فإنه إن لم يعمل بعلمه ، وإن لم يضره لم ينفعه وإنمامدح العلم لأنه يؤدى إلى العمل ، والعمل ثمرة العلم ، والعلم بغير عمل كالشجرة بغير ثمرة ، ومن تعلم ولم يعمل فإنه يعذب فى النار والعياذ بالله ، كما صحت بذلك الأحاديث (٣) .

(١) فاطر ٦ (٢) الصف ١٠ – ١٣ .

(٣) منها قوله ﷺ : « يوتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يلا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه رواه البخارى (٣٢٦٧ / ٣٣١ / ٦) ، مسلم (٢٩٨٩ / ٢٢٩٠ / ٤) .

المرتبة الثالثة : أن يجاهدها على تعليم الناس ما تعلم .

المرتبة الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على الأذى الذى يناله .

فمن تعلم وعمل وعلم وصبر ، فذاك يدعى فى ملكوت السموات عظيماً .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان :

الأولى : أن يجاهده على رد ما يلقى من الشكوك والشبهات .

والثانية : أن يجاهده على دفع ما يلقى من الإرادات والشهوات .

وبالمرتبة الأولى ينال اليقين ، وبالثانية ينال الصبر ، وبهما تنال درجة الإمامة فى الدين . قال تعالي : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ (١) وأما جهاد الكفار والمنافقين فعلى أربع مراتب :-

الجهاد بالقول واللسان والنفس والمال .

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فعلى ثلاث مراتب :-

الجهاد باللسان ، واليد ، والقلب .

فهذه ثلاثة عشرة مرتبة من مراتب الجهاد ،ومن مات ولم يغز ، ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبة من النفاق » (٢).

---

(١) السجدة ٢٤ .

(٢) مسلم (١٩١٠ / ١٥١٧ / ٤) ، أبو داود (٢٤٨٥ / ١٨١ / ٦) ، والنسائى (٦ ٨ /)

نسأل الله أن ينصرنا على أنفسنا ثم على أعدائنا . إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وبهذا ينتهى تفسير سورة الحجرات ، مختوما ببيان حقيقة الإيمان على وجه الإجمال فما هى أركان الإسلام ؟ وما هى أركان الإيمان ؟ انظر شرح حديث جبريل (١) .

وسبحانك اللهم وبحمدك ، وأشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك

كتبه

عبد العظيم بن بدوى .

---

(١) مجموعة من الخطب أيضا ، سميتها : أكمل البيان فى معنى الإسلام ، والإيمان والإحسان ، وقد طبعت بفضل الله .

الفهرس